المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 27-08-2005
الصفحـات : 9
العـــدد : 13578
المسلسل : 20

رسائل أكاديمية للملك عبدالله..

د. مشاري بن عبدالله النعيم

إننا بحاجة إلى تعليم يحدث تغييرا ويكون نبضاً للوطن ويساهم في بناء اقتصاده لا تعليماً يخرج انصاف متعلمين ويدفع بلادنا إلى الضعف والتراجع ويبعدنا من أي تنافس اقتصادي دولي

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 27-08-2005 العـــدد : 13578
الصفحـات : 9 المسلسل : 20

(١)

■ الملك عبدالله، هذا الإنسان المثقل بهموم وطنه ومواطنيه يفتح لنا الباب على مصراعيه للمساهمة في بناء هذا الوطن العظيم، كيف لا وهو يبدأ خطوات ملكه بقرارات إنسانية ومجتمعية واقتصادية تبعث على التفاؤل وتحث على العمل وتزيد من حجم المسؤولية لدى كل مواطن. هذا الملك الإنسان يذكرنا في كل حديث له بأبناء هذا الوطن ويوصي بهم خيراً، وهي أمانة ثقيلة يحملنا بها كي نعمل على رفعة هذا البلد الذي يحتضننا جميعاً. لقد جعل الملك من كل همومه «الوطن ومن يعيش عليه»، والواجب علينا أن نستشعر هذه المسؤولية الكبيرة وأن نعيش الوطن كما يعيشه الملك. إنها الرغبة في بناء مستقبل مشرق للوطن ولا اعتقد أن هناك قضية يمكن التحدث عنها مثل قضية التعليم وهمومه الكثيرة التي تحتاج تدخل الملك ودعمه، خصوصاً وأن خطوات التغيير والإصلاح التي بدأ بها الملك منذ أن كان ولياً للعهد أحدثت تحولاً مجتمعياً جوهرياً وقربت القائد من الشعب وأزالت كثيراً من الحواجز النفسية التي كانت موجودة ودفعت بأصحاب الرأي للتعبير عما يختلج في صدورهم طالما أن هذا يقوي الأمة ويرفع من شأنها. هذا الانفتاح الكبير بين ولي الأمر والوطن يشجع فعلاً على الحديث بصراحة ومخاطبة الملك مباشرة بما يدور في أذهاننا وما نراه ضرورياً لمواجهة المشاكل التي تحيق بنا من كل جانب. ولعل مسألة التعليم وقضاياه تأتي في مقدمة كل القضايا، فهي مسألة تمس المستقبل وأنا أجدها فرصة سانحة لبعث هذه الرسائل الأكاديمية لخادم الحرمين الشريفين - حفظه الله ورعاه - متمنين أن يبدأ بنا عصراً تعليمياً جديداً يضع هذه البلاد في مصاف الدول المتطورة تعليمياً، فقد حان الوقت كي نعيد حساباتنا وأن نحدث تغييراً جذرياً في التعليم يخلصنا من الكثير من الجمود والانحباس في الحلقات المفرغة التي صنعتها بيروقراطية التعليم ورؤاه التقليدية.

(٢)

ولعلنا نبدأ تلك الرسائل بهم تقيل أرى أنه كان سبباً في تراجع التعليم العالي والجامعات السعودية، وهو بيروقراطية التعليم والقيود المفروضة على الجامعة، إذ أن الجامعات السعودية تحتاج إلى كسر للقيود التي كبلت بها، فهي مؤسسات خاضعة لنظم بالية، وتفتقر للمناخ الأكاديمي الذي يؤهلها للمساهمة الحقيقية في بناء الوطن. لقد وصلت الجامعات إلى مرحلة الجمود، ولم يعد للإنجاز العلمي أي قيمة فيها. انها مؤسسات تتوق للاستقلال والانعتاق من سطوة البيروقراطية التي مكنت بعض المتنفذين الذين ليس لهم أي هموم أو تطلعات أكاديمية للسيطرة عليها ودفعها إلى اتفاق مظلمة لا يمكن أن تمهد لأي مستقبل مشرق. وعندما نقول «استقلال الجامعة»، فإننا نقصد ذلك بكل ما تعني هذه الكلمة من معنى إذ يفترض أن تكون هذه المؤسسة قادرة على العمل بمفردها (ولكن ضمن سياسة الدولة العامة) وأن تكون ذات حضور إقليمي ودولي (مع اننا لم نتمكن من جعل جامعاتنا فاعلة على المستوى المحلي). وأن تصبح مؤسسات لبناء الفكر وأن تساهم في إصلاح المجتمع. ولا نعتقد أن مؤسسة مثل هذه تحتاج أن تحصل على قراراتها الكبيرة والصغيرة من وزارة التعليم العالي، وأن يرأس مجلسها وزير التعليم العالي (ولا أعلم كيف يمكن أن يقوم بذلك بعد زيادة عدد الجامعات). كما اننا لا نرى أن هناك جامعة مستقلة يعين عمداؤها ورؤساء الأقسام فيها وتستقر للقرار الديموقراطي. اننا نحلم يا خادم الحرمين الشريفين أن تكون كل جامعة في بلادنا مؤسسة كبيرة قائمة بذاتها وأن يكون هناك مناخ أكاديمي تنافسي بدلاً من «فقد الشعور» الأكاديمي الذي نعيشه في أروقة الجامعة في وقتنا الحالي. فهذا البلد لا يريد جامعات تخرج طلاباً بل تصنع رجالاً ونساءً يعتمد عليهم في الحاضر والمستقبل.

(٣)

ولعل إحدى الخطوات المهمة في طريق استقلالية الجامعات هي تخصيص التعليم العالي بشكل كامل، وهو تخصيص كما أراه غير تخصيص القطاعات الاقتصادية لأنه سيعتمد على دعم الدولة بشكل كبير إذ أن المسألة إجرائية بحتة لا تهدف إلى تحويل الجامعات إلى مؤسسات ربحية. فبدلاً من أن تكون ميزانية التعليم العالي مركزية وتعطى للجامعات مباشرة يمكن أن تكون عبارة عن دعم للطلاب (بحيث يخصص دعم مالي محدد لكل طالب يلتحق بأي جامعة ليشكل مجموع الطلاب ميزانية الجامعة النهائية مع التأكيد هنا على أن الميزانية التي تقدمها الدولة سنوياً للتعليم العالي تكفي وأكثر لتعليم نسبة أكبر من الطلاب والطالبات الذين يلتحقون سنوياً بالجامعات والكليات القائمة حالياً) وهو ما سيجعل كل جامعة تقوم بتحسين قدرتها الاستيعابية وتطوير تخصصاتها العلمية التي يمكن أن تجذب أكبر عدد من الطلاب لأن ذلك سوف يزيد من ميزانيتها ودخلها. ومع ذلك فإننا بحاجة هنا إلى رقابة كبيرة يتم من خلالها التأكد أن التخصصات العلمية ومستوى التعليم الذي تقدمه الجامعة يرقى لحاجة بلادنا، وهو الدور الذي نتمنى أن تقوم به وزارة التعليم العالي. إنه أسلوب غير مباشر لإحداث مناخ أكاديمي تنافسي، ويدعم من الدولة وتحت نظرها، وعن طريق إعادة التفكير في كيفية توزيع ميزانية التعليم العالي. إن هذه الخطوة سوف تعيد الحياة للتعليم بشكل عام وسوف تحقق للجامعات السعودية فرصاً كثيرة وكبيرة لبناء مؤسسات ذات شخصيات مستقلة لا مؤسسات تكرر بعضها البعض. كما انها ستزيد من فرص قبول الطلاب وستشجع القطاع الخاص على بناء جامعات ذات قيمة علمية كبيرة بدلاً من هذا التدافع التجاري نحو التعليم، لأنه يفترض أن توزع ميزانية التعليم العالي على كل الجامعات (ذات الأصل الحكومي أو الجامعات الخاصة). فالأصل هنا أن الجامعة مؤسسة لا تسعى للربح. انها أمنية أن يكون لدينا تعليم حكومي بمواصفات التعليم الخاص، وهو ما نجحت في تحقيقه دول كثيرة وشكل لها بمرور الوقت مفصل التحول نحو التنمية والتقدم لأنه لا تعليم دون مناخ تنافسي، ودون رؤية وهدف، وفي اعتقادي أن تعليمنا العالي يفتقر للتنافس والرؤية والهدف.

(٤)

في كل دول العالم يوجد ما يمكن أن نسميه «شبكة تعليمية» وهي عبارة عن خارطة أكاديمية وتقنية في نفس الوقت، التي تجعل من العمل الأكاديمي عملا متكاملا وقادرا على التطور، ولعل هذه المهمة منوطة بالمؤسسة التي تدير التعليم العالي، لكننا نفتقر لوجود مثل هذه الشبكة، أو ربما هي موجودة لكنها مشتتة. هذه الشبكة التي ستمنع الازدواج والتكرار وهدر الميزانيات الذي لا طائل منه ستزيد من فاعلية التعليم العالي وستطلق الجامعات من الانغلاق على الذات (إذ أنه يندر أن يكون هناك تقاطعات بين الجامعات السعودية لأن الكل مشغول بنفسه ولا يوجد هناك تناقس حتى يتولد الشغف بالآخر). ولعل هذه الشبكة التعليمية ستشجع على تطوير جامعات متخصصة، فنحن بحاجة إلى جامعات تهتم مباشرة بالقضايا والتقنيات التي تهم الوطن أكثر من غيرها، فنحن حتى هذه اللحظة، على سبيل المثال، لا يوجد لدينا بنية تحتية (بشرية وصناعية وتقنية) تهتم بصناعة البترول رغم اننا أنشأنا جامعة اسمها البترول والمعادن (جامعة الملك فهد)، لكننا لا نرى أن هذا قد أحدث تحولاً تقنياً ومجتمعياً حقيقياً، فما زالت شركة أرامكو تعتمد في بناء مشاريعها على تقنيات من الخارج ولم تتطور لدينا أي صناعة محلية مرتبطة بالبترول. اعتقد أن سبب ذلك هو التعليم الذي تحول إلى مجرد آلة لتخريج الطلاب ولم يشجع على بناء مناخ تقني ذي قيمة اقتصادية حقيقية. إن التعليم الذي لا ينعكس على الواقع لا قيمة كبيرة له. وما أراه هو اننا ننفق كثيراً على التعليم دون أن يتحول هذا الإنفاق إلى تنمية حقيقية، وهو ما يجعلنا نبعث هذه الرسالة

المصـــــدر : الرياض
التـــاريخ : 27-08-2005 العـــدد : 13578
الصفحـات : 9 المسلسل : 20

إلى مقامكم الكريم كي تجعلوا لتضحيات الوطن وانفاقه الكبير على التعليم قيمة حقيقية تجنيها أجيال الوطن وتؤطر لتقاليد علمية عريقة نحتاج لها في الوقت الحالي أكثر من أي وقت مضى.

(٥)

إن هذا يشجعنا إلى بعث رسالة أخرى إلى الملك الإنسان، فهموم التعليم كثيرة وفيها مفتاح التنمية وتحقيق الرخاء، فالبحث العلمي ليس له قيمة كبيرة في مجتمعنا، فإذا كنا نتطلع إلى جامعات مستقلة ومتخصصة، وإذا كنا رأينا كيف اننا لم نستطع تطوير صناعة بترولية محلية رغم اننا أهم وأكبر دولة مصدرة للبترول في العالم فإن هذا يجعلنا نرى أن المشكلة هي بحثية وتعليمية بشكل عام، فكثير من جامعات العالم صارت تنشئ ما يسمى بالمتنزه العلمي Scientific Park أو واحة للعلوم، وهو فضاء بحثي يربط الجامعة بالصناعة ويشجع المشاريع الصغيرة لخريجي الجامعة وأصحاب الأفكار ويربطهم بالتطورات التي تحدث في عالم الصناعة كما أنه يقدم خدمات جليلة للشركات الصناعية الكبرى. هذا المتنزه العلمي لا يمكن أن يحل محله «مراكز البحوث» غير الناجحة الموجودة في بعض جامعاتنا، لأن الفكرة هنا تعتمد بالدرجة الأولى إلى ارتباط كامل ووثيق بين الجامعة وخريجيها والمجتمع الصناعي والاقتصادي بينما مراكز البحوث هي جزء من المؤسسة البيروقراطية التي تدار كأي مؤسسة حكومية تنتظر من يقدم لها العون. يضاف إلى ذلك أن واحات العلوم والمتنزهات العلمية عندما تكون مستقلة (باستقلال الجامعات) سوف تتنافس وستطور تقنيات تهم بلادنا، إذ أنه لأمر محزن أن نكون في هذه الصحراء ويتهددنا خطر نقص المياه ولا نستطيع أن نطور تقنيات لحفظ الحياة في هذا البلد. ويمكننا أن نقيس على ذلك الكثير من القضايا الملحة التي لا تستطيع أن تتفاعل معها جامعاتنا الحالية.

(٦)

ويبقى الأستاذ الجامعي أحد الهموم الكبيرة التي يعاني منها تعليمنا العالي، ومع ذلك فهو جزء من كل، فإذا لم يصلح التعليم لن يصلح الأستاذ مهما كان مبدعاً، لذلك فلن تكون هذه الرسالة لدعوة الملك لإصلاح وضع الأستاذ الجامعي، بل لإصلاح التعليم كله لأنه الطريق الوحيد الذي سيجعل من كل منتسب للتعليم العالي قادراً على التطور وعلى الوصول لمرحلة الرضى، فنحن لا نريد سوى فرصة للعمل الحقيقي وندفع الأساتذة السعوديين للتنافس ولتحقيق نجاحات حقيقية بعد هذه التجربة الطويلة في التعليم العالي. اننا نتمنى أن يتحرر الإبداع من قبضة الأوصياء عليه ومن نصبوا أنفسهم رقباء على حركات وسكنات التعليم في بلادنا. إن هذه الرغبة يا خادم الحرمين نابعة من القلب ومن حاجة ملحة لا مفر منها إلا إليها، لأن لا إصلاح للتعليم دونها، وتحول الأستاذ الجامعي للاهتمام بمصالحه الخاصة واهماله لأهم قضايا الوطن فيه خسارة كبيرة للجميع، وكما هو معروف فإن بناء جيل من الأساتذة السعوديين القادرين على إيصال رسالة التعليم بصورتها الصحيحة هو أملٌ كبير نتمنى أن يتحقق لهذا الوطن المعطاء.

(٧)

وأخيراً فإن التعليم العالي بهمومه الثقيلة لا يخفى على إنسانية الملك وحرصه على هذا الوطن الذي يجمعنا لكننا نعرضه أمام مقامكم يا خادم الحرمين مستبشرين بخطوات الإصلاح والتغيير التي خطوتموها ودموتكم لكل مواطن للمشاركة في الشورى. فاعادة قطاع التعليم إلى طريقه السليم يمثل هماً مجتمعياً نتطلع جميعاً أن نتجاوزه وأن نراه جزءاً من التاريخ الذي لن يعود. اننا بحاجة إلى تعليم يحدث تغييرا ويكون نبضاً للوطن ويساهم في بناء اقتصاده لا تعليماً يخرج انصاف متعلمين ويدفع بلادنا إلى الضعف والتراجع ويبعدنا من أي تنافس اقتصادي دولي، فالأمم ترقى برجالها ونسائها، والتعليم هو من يصنع هؤلاء العظماء الذين يبنون الوطن ويصنعون مجده.